بسم الله الرحمن الرحيم

سورة القصص

سورة مكية، نزلت لتقرر أن القوة الوحيدة في الوجود هي قوة الله، وأن القيمة الوحيدة في هذا الكون هي قيمة الإيمان، وهي تبدأ بقوله تعالىٰ:

﴿طسٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢﴾

أي: هذه آيات من هذا الكتاب المبين، وهو القرآن.

﴿نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ بِٱلۡحَقِّ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ۝٣﴾

يعني: ﴿نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ﴾ فيها، بعضًا ﴿مِن نَّبَإِ﴾ خبر ﴿مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ﴾ ﴿بِـ﴾ الوجه ﴿ٱلۡحَقِّ﴾ الذي لا تحريف فيه، ولا شك حوله ﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ ويصدقون، فينتفعون. **ذلك..**

﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ۝٤﴾

﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ﴾ هذا، قد ﴿عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ التي يحكمها، وهي أرض مصر، وتجبّر وطغىٰ، ونسي العبودية، وادعىٰ الألوهية.

﴿و﴾ كذلك ﴿جَعَلَ أَهۡلَهَا﴾ أي: أهل هذه الأرض ﴿شِيَعٗا﴾ فرقًا وطوائف ممزقين، وليسوا يدًا واحدة؛ ليسهل له الطغيان فيهم، وكان ﴿يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ

﴿مِّنْهُمْ﴾ فيذلهم، ويسخرهم في خدمته، و ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ فقط لخدمته.

وباختصار: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون.

هذه هي قصة فرعون في كلمات معدودات، ولكن أين كانت عناية الله بخلقه؛ لتنقذهم من هذا الطاغية؟ يقول الله تعالىٰ:

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾

يعني: ﴿وَنُرِيدُ﴾ بعنايتنا ورعايتنا هذه الأشياء:

أولًا: ﴿أَن نَّمُنَّ﴾ نتفضل ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وهي أرض مصر، من بني إسرائيل، الذين كانوا فيها من أيام يوسف عليه السلام، وكانوا خير أهل الأرض وقتها، أي: نتفضل عليهم بإنقاذنا لهم من ظلم فرعون.

ثانيًا: ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾ قادة في الخير، يدعون الناس إليه.

ثالثًا: ﴿وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ لغيرهم في الملك والسلطان من أهل زمانهم.

رابعًا: ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فنجعل لهم عليها سلطانًا وحكمًا.

خامسًا: ﴿وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا﴾ أي: هؤلاء الظلمة ﴿مِنْهُمْ﴾ أي: من بني إسرائيل ﴿مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ منه ويخافونه، من قوتهم وانتقامهم منهم.

هذا، وقد تحقق كل ما أراده الله، وإليك التفاصيل من أولها، يقول الله تعالىٰ:

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾﴾

إذًا، الإنقاذ سيكون ـ بعناية الله ـ علىٰ يد موسىٰ عليه السلام الذي تبدأ قصته مع فرعون بهذه الآية، وهذه الآية في غاية الإبداع والإعجاز، ففيها كما يقول العلماء:

أولًا: خبران وهما: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ و ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾.

ثانيًا: أمران وهما: ﴿أَرْضِعِيهِ﴾ و ﴿فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ﴾ أي: الماء.

ثالثًا: نهيان وهما: ﴿لا تخافي﴾ و ﴿وَلَا تَحْزَنِيٓ﴾.

رابعًا: بشارتان وهما: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾ أي: سنعيده إليك، ﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أي: سنجعله نبيًّا رسولًا.

وفهمت أم موسىٰ الخبرين ونفذت الأمرين، وامتثلت للنهيين، وفرحت بالبشارتين، وأُلقيَ موسىٰ طفلًا رضيعًا في الماء، وكانت تحرسه عناية الله.

﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾﴾

أي: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ﴾ من الماء، واستخرجوه، وذهبوا به إلىٰ فرعون وكان ذلك ﴿لِيَكُونَ﴾ أمر الله نافذًا، ونجعله ﴿لَهُمْ عَدُوًّا﴾ يعاديهم ﴿وَحَزَنًا﴾ يحزنهم.

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ﴾ في كفرهم، وطغيانهم، واستعلائهم، وسوء فهمهم لعناية الله وقدرته.

وهكذا، دخل الرضيع إلىٰ قصر فرعون؛ ليكتب سطور نهاية الظلم.

﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾﴾

﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ﴾ لفرعون، لما رأت الطفل الرضيع: هذا ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ﴾ إذْ ليس لنا أولاد، ثم قالت: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾ كما تقتلون الذكور كل لحظة ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ حينما يكبر ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ ونتبناه.

واستجاب فرعون لها فلم يقتلوه، وبقي في القصر ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ جميعًا، بما يدبره الله لهم لا هي تشعر أنه سيكون سبب إيمانها وهدايتها، ولا هم يشعرون أنه سيكون سبب هلاكهم.

هذا عن الطفل الرضيع الذي ألقته أمه بأمر الله في الماء، فماذا عن أمه؟ يقول تعالىٰ:

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾﴾

يعني: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ﴾ قلب ﴿أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا﴾ من كل شيء، بسبب القلق علىٰ وليدها ﴿إِن كَادَتْ﴾ أي: قاربت ﴿لَتُبْدِى بِهِۦ﴾ أي: تخبر بقلقها عليه، وبخاصة لـمَّا وقع في يد آل فرعون، وأدخل إلىٰ قصره أيضًا ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ بالثبات والصبر ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ المصدقين برعاية الله وحفظه.

﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ﴾ من فرط حبها له ﴿قُصِّيهِ﴾ تتبعي خبره واستجابت ابنتها وبدأت في معرفة الأخبار.

﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ﴾ أي: رأته وهو في أيديهم ﴿عَن جُنُبٍ﴾ عن بعد ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بها، ولا يعرفون أنها أخته، فاطمأنت بعض الشيء، واقتربت منهم

يقول الله تعالىٰ:

﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾﴾

يعني: ﴿و﴾ كنا قد ﴿حَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ﴾ ومنعناه الرضاعة ﴿مِن قَبْلُ﴾ أن تراه أخته، وكان أهل القصر في نكد شديد؛ لعدم رضاعته من أيّ مرضعة يحضرونها له.

﴿فَقَالَتْ﴾ أخته لهم في هذا الجو القلق عن الرضيع: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ﴾ إرضاعًا ورعاية ﴿وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ أي: مخلصون في رعايته وإرضاعه.

وأجابوها إلىٰ ما قالت؛ حرصًا علىٰ حياة الرضيع، وعادت بالطفل إلىٰ البيت.

﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾

وهكذا، لمَّا وعدها ربنا بقوله: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾ [القصص: ٧] رده إليها، وبسرعة، ووعْدُ الله حق دائمًا، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ذلك، فلا يصبرون. أو فلا يؤمنون..!!

وعاش الطفل موسى بعناية الله، تحت سمع وبصر أمه، وعلىٰ نفقة فرعون.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾﴾

أي: ﴿وَلَمَّا﴾ كبر موسىٰ، و ﴿بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ يعني كمال قوته البدنية والعقلية ﴿ءَاتَيْنَٰهُ﴾ من عندنا ﴿حُكْمًا﴾ أي: حكمة ﴿وَعِلْمًا﴾ أي: دراية بمصالح الدنيا والآخرة.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ يعني كما فعلنا بموسىٰ وأمه ﴿نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ المؤمنين.

ثم يقول تعالىٰ عن موسىٰ:

﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾

يعني: لمَّا آتاه الله الحكمة والعلم، خرج موسىٰ من قصر فرعون، وعاش بعيدًا، وصار يدعو إلىٰ الله، وعرف الناس عنه ذلك، وصار له شيعة وأتباع.

﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ﴾ ذات يوم ﴿عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ﴾ واستراحة ﴿مِّنْ أَهْلِهَا﴾.

﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ﴾ فيما بينهما: ﴿هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾

﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ﴾ وطلب منه النصرة ﴿عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾.

ولبىٰ استغاثته ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ﴾ أي: ضربه بكل قوته ﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ ومات.

وهنا ﴿قَالَ﴾ موسىٰ لنفسه ﴿هَٰذَا﴾ الذي فعلته عمل ﴿مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ الذي دفعني إليه، وأثار غضبي عليه ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: الشيطان ﴿عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾.

وبعد أن اعترف بخطئه ندم علىٰ فعله، وتاب إلىٰ الله.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾

وغفر له ربه ذنبه الذي تاب منه، ولم يُصر عليه، حيث ﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه ﴿هُوَ ٱلْغَفُورُ﴾ لذنوب عباده المؤمنين ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ بهم، فلا يعذبهم بعد توبتهم ثم عاهد ربه على أن لا يعود لمثلها.

﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ بالمغفرة ﴿فَلَنْ أَكُونَ﴾ يومًا ما ﴿ظَهِيرًا﴾ نصيرًا ﴿لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ الكافرين بك، أو المخالفين لأمرك.

ومع ذلك لم يهدأ لموسى بال وهو في المدينة، بعد هذه الحادثة، يقول الله تعالى:

﴿فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾

أي: ﴿فَأَصْبَحَ﴾ موسى وهو ﴿فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا﴾ على نفسه من أهلها؛ بسبب قتل هذا القبطي ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ الأذى منهم، وبينما هو كذلك، ﴿فَإِذَا﴾ بالرجل ﴿ٱلَّذِى﴾ استغاث به، و ﴿ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ﴾ وهو إسرائيلي من شيعته ﴿يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾ من ظلم قبطي آخر، وهنا جاء موسى و﴿قَالَ لَهُۥ﴾ أي: للإسرائيلي: ﴿إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾ كثير الشر، كثير المعارك، ولم يتمالك موسى نفسه أمام هذا الظلم، وأراد أن يضرب هذا الظالم القبطي.

﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ﴾ يضرب ﴿بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا﴾ وهو القبطي، ظن الإسرائيلي أن موسى سيضربه هو، لذلك أخذ بالظن و ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ﴾ ولا يعرف ذلك سوانا ثم تنكر للفضل، وقال: يا موسى ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ تضرب وتقتل، ولا تفكر في العواقب ﴿وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾

ولكن ليس كل المؤمنين على هذا السوء من الأخلاق، ولا بهذه السلبية، التي رضيت بالذل والهوان، حيث إن هناك غير هذا، يقول الله تعالى:

﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾﴾

في هذه الآية منتهى الإيجابية المطلوبة من المؤمن.

﴿وَجَآءَ رَجُلٌ﴾ ينكر ذاته، وبدافع من نفسه المؤمنة بالخير ﴿مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾ لم يقل: الأمر لا يعنيني، المنكر ليس في جهتي، ولا قريبًا مني.

﴿يَسْعَىٰ﴾ بجدية ليغير المنكر، ولا يهم التعب، ولا المعاناة من أجل ذلك.

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ مكاشفة بالخطر، ووضوح في التعبير عنه.

﴿فَٱخْرُجْ﴾ قدم البديل، وأشار إلىٰ المخرج.

﴿إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ أنصحك ولا ألزمك، أشير عليك ولا أكرهك.

وسمع موسىٰ النصيحة ونفذها.

﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾﴾

وخرج موسىٰ من مصر، ونجاه الله من القوم الظالمين بها، وتوجه إلىٰ بلاد مدين بالشام، وهي خارج سلطان فرعون.

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ﴾ إلىٰ بلاد ﴿مَدْيَنَ﴾، استعان بالله قبل كل شيء، حيث قال: ﴿عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾.

ووصل إلىٰ بلاد مدين.

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾

يعني: ﴿وَلَمَّا﴾ وصل موسىٰ إلىٰ مدين، وذهب إلىٰ مكان الماء فيها ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: جماعات كثيرة منهم ﴿يَسْقُونَ﴾ دوابهم.

﴿و﴾ هناك ﴿وَجَدَ مِن دُونِهِمُ﴾ أي: بعيدًا عنهم بعض الشيء ﴿ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ تدفعان وتسوقان غنمهما، ولا تسقيان، فسألهما ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا﴾ أي: لم تقفان بعيدًا ولا تسقيان، كما يسقي الناس.

﴿قَالَتَا﴾ له: ﴿لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ﴾ حتىٰ ينتهي الرعاة من سقيهم، ويعودون راجعين، ثم نسقي بعدهم؛ حيث ﴿أَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ لا يستطيع أن يسقي هو، ولذلك نسقي نحن عنه، فتأثر لضعفهما، ولظلم الناس لهما، وهو الذي فر من الظلم.

﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ أغنامهما؛ رغبة في المعروف، وإغاثة للملهوف.

﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ﴾ وعاد ﴿إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ ليستريح فيه من حر الشمس، وناجىٰ ربه ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾.

وعادت البنتان إلىٰ أبيهما، وأخبرتاه خبر هذا الرجل الذي سقى لهما قبل موعدهما فطلب من إحدىٰ ابنتيه أن تستدعيه لأبيها، يقول الحق تبارك وتعالىٰ:

﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾

ولمَّا استمع الجميع إلىٰ قصته، وعرفوا حكايته.

﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾

أي: استأجره لنا، يرعىٰ أغنامنا، ويدير شؤوننا ثم بينت مؤهلاته لهذه الوظيفة في العبارة التالية ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ﴾ في العقل والبنية ﴿ٱلْأَمِينُ﴾ علىٰ الأعراض والحرمات.

ولكن كيف يستأجره، ويقيم معهم؟ إنها ليست مشكلة ما دام هناك لها حل..

﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٢٧ قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ٢٨﴾

يعني: ﴿قَالَ﴾ هذا الشيخ الكبير لموسىٰ ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ﴾ أزوجك ﴿إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ﴾.

﴿عَلَىٰٓ﴾ أن يكون المهر: ﴿أَن تَأۡجُرَنِي﴾ وتعمل عندي ﴿ثَمَٰنِيَ حِجَجٖ﴾ ثمان سنوات ﴿فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ﴾ هذه المدة ﴿عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ﴾ هذه الزيادة فضلًا ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ﴾ إن كنت لا ترغب في هذه الزيادة، واطمئن يا موسىٰ ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ في المعاملة، ولن أكلفك فوق طاقتك إذا قبلت.

وقبل موسىٰ، ثم اشترط موسىٰ لنفسه شرطًا؛ حيث ﴿قَالَ﴾ له موسىٰ: وافقت علىٰ الزواج، وذلك الصداق وعد بيني وبينك ﴿أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ﴾ ثمانية أو عشرة من السنين ﴿قَضَيۡتُ﴾ معك ﴿فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ﴾ في الموعد الآخر، بطلب الإقامة فيه ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ﴾.

وعاش موسىٰ عليه السلام مع هذه الأسرة الطيبة الكريمة مدة من الزمن حتىٰ انقضىٰ الموعد المتفق عليه بين موسىٰ وهذا الشيخ الكبير، وأراد موسىٰ أن يعود إلىٰ أهله ومسقط رأسه مصر، فماذا حدث؟ يقول الله تعالىٰ:

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗا قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ٢٩﴾

يعني: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى﴾ المدة المتفق عليها، وأراد العودة إلىٰ مصر، أخذ زوجته معه، وخرج من بلاد مدين ﴿وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ﴾.

وهو في طريق العودة هذه ضلَّ الطريق في ليلة باردة، ولكنه ﴿ءَانَسَ﴾ رأى ﴿مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا﴾ تضيء، وهنا ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ﴾ زوجته ﴿ٱمْكُثُوٓاْ﴾ انتظروا ﴿إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ بعيدة، سأذهب إليها ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا﴾ أي: من أهلها ﴿بِخَبَرٍ﴾ عن الطريق، ﴿أَوْ جَذْوَةٍ﴾ شعلة ﴿مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ تستدفئون بها.

وبقيت امرأته حيث أمرها، وذهب موسىٰ إلىٰ النار..

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾﴾

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا﴾ موسىٰ، سمع نداءً، ممن يخاطبه ويكلمه ويقول له:

﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

وعلىٰ الفور، سمع التكليف التالي:

﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾﴾

ونفَّذ موسىٰ الأمر، وألقىٰ عصاه، فصارت حية تسعىٰ ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا﴾ موسىٰ ﴿تَهْتَزُّ﴾ تتحرك وتتلوى ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ حية، فزع فزعًا شديدًا، **وهنا** ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾ رجع للخلف مسرعًا ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أي: ولم يعد، أو يلتفت فسمع ربه يقول له: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ﴾ تعال ﴿وَلَا تَخَفْ﴾ منها أو من غيرها ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ﴾ لأنك في حمايتي، وتحت رعايتي، وعاد ونظر إليها دون خوف.

وكان الأمر الثاني: يا موسىٰ..

﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾

يعني: أدخل يدك في فتحة قميصك ﴿تَخْرُجْ﴾ منه ﴿بَيْضَآءَ﴾ اللون، يتلألأ منها نور كنور القمر ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ أي: من غير مرض بها.

﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ﴾ وضم يدك إلىٰ صدرك، يذهب عنك ما بك ﴿مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾ أي: الخوف.

ثم قال له ربه تعالىٰ: ﴿فَذَٰنِكَ﴾ العصا واليد ﴿بُرْهَٰنَانِ﴾ دليلان ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ علىٰ وحدانيته وقدرته، اذهب بهما ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ وادعهما لتوحيدي وعبادتي، وطاعتي؛ حيث ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ مخالفين لأوامر الله وشرعه. وأدرك موسىٰ خطورة الموقف، لذلك..

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾﴾

يعني: فإذا قتلوني لا أستطيع تبليغ رسالتك.

كما أحسَّ عليه السلام بثقل المهمة، فطلب المعونة قائلًا:

﴿وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾﴾

أي: ﴿و﴾ أنت تعلم يا رب أن ﴿أَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا﴾ وأقدر مني بيانًا ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا﴾ أي: معينًا ﴿يُصَدِّقُنِىٓ﴾ ببيان المعنىٰ عند ساعات النقاش والجدال؛ حيث ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ فلا يؤمنون.

وفي الحال، أجاب له ربه طلبه، وثبّت من الخوف فؤاده..

﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾

أي: ﴿قَالَ﴾ له ربه: يا موسىٰ ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ﴾ سنقوي أمرك ﴿بِأَخِيكَ﴾ هارون، ونجعله نبيًّا كما طلبت.

﴿و﴾ أيضًا ﴿نَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا﴾ حجة قوية، وعناية إلهية ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ﴾ بأذى، اذهبا إليهم ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ دعوة إلىٰ توحيد الله وعبادته فـ ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ لهم بإذن الله.

وبعد أن تلقّى هذا الوحي، عاد بأهله إلىٰ مصر، وذهب إلىٰ فرعون وقومه يدعوهم إلىٰ الله.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾﴾

يعني: دخل موسىٰ عليه السلام علىٰ فرعون وقومه ودعاهم إلىٰ توحيد الله وطاعته، وعرض عليهم آيات الله الواضحة، وهي العصا واليد، ففوجئوا ولم يؤمنوا، بل ﴿قَالُوا۟﴾ أمرين:

الأول: ﴿مَا هَـٰذَآ﴾ الذي معك من العصا واليد ﴿إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى﴾ أي: سحر كاذب، وليس بمعجزة من عند الله.

الثاني: ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا﴾ الذي تدعونا إليه ﴿فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾، فمن أين جئت به؟ إنه من عندك أنت. فأجابهم..

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَـٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾﴾

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ لهم: ﴿رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ﴾ أنا أو أنتم!!

﴿و﴾ كذلك ربي أعلم ﴿مَن تَكُونُ لَهُۥ عَـٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ أي: النهاية الحسنة، أنا أو أنتم!! ثم قال لهم: لا تكونوا من الظالمين؛ لتفلحوا وتفوزوا، حيث ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ أبدًا.

وهنا أصبح موقف موسىٰ واضحًا، وصارت حجته بينة قوية، وأسقط في يد فرعون؛ حيث لا حجة معه ماذا يفعل..؟ يقول الله تعالىٰ:

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى ۖ فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ لكبار قومه ورؤسائهم ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم﴾ أي: ليس لكم ﴿مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ كما يدعي موسىٰ، وحتىٰ يؤكد لهم كلامه، التفت إلىٰ واحد من زبانيته وقال: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَٰهَٰمَٰنُ﴾ نارًا ﴿عَلَى ٱلطِّينِ﴾ ليتحمل البناء العالي ﴿فَٱجْعَل لِّي﴾ أي: فابن لي به ﴿صَرْحًا﴾ قصرًا عاليًا ﴿لَّعَلِّيٓ﴾ أصعد عليه، و ﴿أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ هذا الذي يدعونا إلىٰ الإيمان به.

﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ في دعواه.

ولم يبن هامان الصرح، ولم يصعد فرعون ليطلع إلىٰ إله موسىٰ..!!

﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾﴾

يعني: ﴿و﴾ مع ذلك ﴿ٱسْتَكْبَرَ﴾ فرعون ﴿وَجُنُودُهُۥ﴾ علىٰ الله، فلم يؤمنوا وطغىٰ علىٰ الناس ﴿فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي: ظلمًا وعدوانًا.

﴿و﴾ ما ذلك إلَّا لعدم تصديقهم باليوم الآخر؛ حيث ﴿ظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ بعد الموت، وسنحاسبهم.

وعاث فرعون في الأرض فسادًا، واستمر علىٰ كفره، ولم يؤمن بالله عنادًا..

﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾

يخبر تعالىٰ أنه أنزل بفرعون وجنوده، خمس عقوبات:

الأولىٰ: في الدنيا، وهي: الإهلاك ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ﴾ فأغرقناهم بقدرتنا ﴿فِي ٱلْيَمِّ﴾ وهو البحر، في لحظة واحدة.

﴿فَٱنظُرْ﴾ واعتبر يا كل ظالم ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ السيئة..!!

الثانية: في الآخرة، حيث جعلهم قادة إلىٰ النار، كما كانوا في الدنيا قادة للكفر والشر ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ﴾ الطغاة ويرشدونهم ﴿إِلَى﴾ طريق ﴿ٱلنَّارِ﴾ ودخولها.

الثالثة: في الآخرة، وهي: خذلانهم وعدم نصرتهم ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ من العذاب، حين يطلبون الهروب منه.

الرابعة: في الدنيا، وهي: لعنهم إلىٰ يوم الدين ﴿وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ أي: طردًا من رحمة الله، علىٰ ألسنة الأنبياء والمؤمنين.

الخامسة: في الآخرة، وهي: تقبيح صورهم وأرواحهم ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ أي: الفاسدين روحًا، المشوَّهين وجوهًا.

أيوجد بعد هذا العذاب عذاب..؟ لذلك يرشد المولى أهل زمان موسىٰ عليه السلام إلىٰ طريق النجاة من وقوع مثله بهم، وذلك عن طريق التمسك بما جاء به موسىٰ، يقول ربنا جلت حكمته:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾﴾

وكتاب موسىٰ هو التوراة، وقد أعطاها الله لموسىٰ حين بعثه بعد ما أهلك ﴿ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ وهي: قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط، علىٰ هؤلاء الأنبياء السلام.

وكانت التوراة ﴿بَصَآئِرَ﴾ أي: أنوارًا ﴿لِلنَّاسِ﴾ يبصرون بها الرشد والسعادة ﴿وَهُدًى﴾ لهم من الضلال ﴿وَرَحْمَةً﴾ لمن تعبد بها لربه.

كل ذلك ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: يتعظون.

هذا وبعد أن انتهت قصة موسىٰ عليه السلام، يخاطب الله محمدًا ﷺ بما يُثْبِتُ به للدنيا كلها نبوته ورسالته، حيث يقول ربنا تبارك وتعالىٰ له:

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ

نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾﴾

في هذه الآيات الكريمة دلائل علىٰ نبوة محمد ﷺ، حسب قوله تعالىٰ له:

الدليل الأول: ﴿وَمَا كُنتَ﴾ يا محمد ﴿بِجَانِبِ﴾ الجبل ﴿ٱلْغَرْبِيِّ﴾ الذي كان فيه ميقات موسىٰ مع ربه ﴿إِذْ﴾ وقت أن ﴿قَضَيْنَآ﴾ أوحينا ﴿إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾ بالرسالة!! ولكن أعطيناك العلم به.

الدليل الثاني: ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ الحاضرين هذا اللقاء الإلٰهي مع موسى..!! ولكن أعطيناك العلم به.

﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا﴾ أوْجدنا ﴿قُرُونًا﴾ أي: أممًا ﴿فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾ وَبَعُدَ عهدهم عن هذه الرسالة، ووقع التحريف، فأرسلناك لتجديد الدعوة، وأعطيناك علم ذلك كله.. نعم، أرسلناك إليهم.

الدليل الثالث: ﴿وَمَا كُنتَ﴾ يا محمد ﴿ثَاوِيًا﴾ مقيمًا ﴿فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ حتىٰ ﴿تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ﴾ علىٰ أهل مكة ﴿ءَايَٰتِنَا﴾ التي حدثت معهم ﴿وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ لك، فأعطيناك العلم به.

الدليل الرابع: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ﴾ في سيناء ﴿إِذْ نَادَيْنَا﴾ موسىٰ، ليلة المناجاة!! ﴿وَلَٰكِن﴾ أعطيناك العلم به ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ بالعباد. وذلك ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ﴾ يدعوهم إلىٰ الله، ويخوفهم عقابه ﴿مِّن قَبْلِكَ﴾ أي: في الفترة التي بينك وبين عيسىٰ عليه السلام؛ ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ يتعظون.

ويدخل في هذه الفترة كل أهل الكتاب، الذين حرفوا كتبهم، وغيروا فيها وبدلوا.

عجيب الأمر؛ أن هؤلاء القوم الذين قُدمت الأدلة الدامغة لهم علىٰ نبوة محمد ﷺ وصدق رسالته، يخبر عنهم ربنا بقوله:

﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾

يعني: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ﴾ عقوبة ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أو قلوبهم ﴿فَيَقُولُواْ﴾ ساعتها ﴿رَبَّنَا لَوْلَآ﴾ **أي:** هلَّا ﴿أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ يدعونا إلىٰ الإيمان بك وتوحيدك ﴿فَنَتَّبِعَ﴾ بعد دعوته لنا ﴿ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بك، أي: حتىٰ لا يقولون ذلك، ويتعللون لكفرهم، أرسلناك إليهم وإلىٰ الدنيا كلها بالحق بشيرًا ونذيرًا.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾

أي: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا﴾ وهو القرآن المعجز مع رسولنا، ﴿قَالُواْ﴾ عنادًا ﴿لَوْلَآ أُوتِىَ﴾ من الآيات الحسية ﴿مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾ كالعصىٰ، واليد، وغير ذلك؟ حقًّا إنه تنطع منهم وعناد، ومع ذلك يرد الله عليهم، قائلًا:

أولًا: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ﴾ من الآيات ﴿مِن قَبْلُ﴾ القرآن..؟

حيث ﴿قَالُواْ﴾ في موسىٰ وهارون ﴿سِحْرَانِ﴾ أي: ساحران ﴿تَظَٰهَرَا﴾ تعاونا مع بعضهما البعض.

﴿وَقَالُواْ﴾ أيضًا ﴿إِنَّا بِكُلٍّ﴾ أي: بكلِّ واحد منهما ﴿كَٰفِرُونَ﴾.

ثم يرد المولىٰ عليهم ثانيًا بقوله للحبيب ﷺ:

﴿قُلْ فَأْتُواْ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾﴾

يعني: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ما دمتم قد كفرتم بالتوراة وبالقرآن: ﴿فَأْتُواْ﴾ أنتم ﴿بِكِتَٰبٍ﴾ غيرهما ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ يكون ﴿هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ﴾ وأنا ﴿أَتَّبِعْهُ﴾ لأني لا أستكبر عن اتباع الهدىٰ من الله، هيَّا افعلوا ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في رغبتكم الوصول للحقيقة.

وبالطبع لن يأتوا بذلك، ولن يستطيعوا، بل لن يستجيبوا لهذا العرض، لذلك يقول القوي القاهر:

﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾

يعني: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ﴾ فيما عَرضْتَه عليهم يا محمد، ولن يستجيبوا ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ﴾ بلا دليل ولا حجة.

وعلىٰ ذلك، فهم ضالون عن الحق والصواب، وحقًّا ﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ﴾ ؟ لا أحد مطلقًا، حيث ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى﴾ بهداه ﴿ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

ومع أنهم عاندوا، وكفروا.. ومع أنهم لم يستجيبوا لك في أن يأتوا بكتاب من عند الله أهدىٰ من التوراة والإنجيل..!! فإنا لم نهمل بلاغهم..

﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾﴾

يعني: ﴿وَلَقَدْ﴾ أنزلنا لهم القرآن موصولًا بعضه ببعض، الوعد بالوعيد، والترغيب بالترهيب، متتابعًا في النزول، حسب الحوادث والنوازل كل ذلك ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ فيتعظون فيؤمنون.

استمعنا فيما سبق إلىٰ الآيات الكريمة التي يثبت الله بها نبوة محمد ﷺ، فلنستمع الآن إلىٰ ما يؤكد ذلك مرة أخرىٰ، يقول الحق تبارك وتعالىٰ:

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾﴾

أي: أن ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ التوراة والإنجيل ﴿مِّن قَبْلِهِۦ﴾ أي: القرآن ﴿هُم بِهِۦ﴾ أي: بمحمد ﷺ ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ لأنهم يعترفون بنبوته..!!

وأما أنتم، فليس معكم كتاب، ومع ذلك لا تؤمنون..!!

﴿و﴾ هؤلاء أيضاً كانوا ﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ القرآن ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ﴾ بعد نزوله علىٰ محمد ﷺ؛ حيث ﴿إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ﴾. ثم قالوا ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ﴾ أي:

من قبل نزوله ﴿مُسْلِمِينَ﴾ له، مؤمنين؛ لمَا وجدنا من البشارة بمحمد في كتب الأنبياء السابقين.

وبعد أن بين الله أن إيمانهم مرتين: مرة بالكتب السابقة، ومرة بالقرآن الكريم، أخبر أنهم يكافَؤون مرتين كذلك، فقال تعالىٰ:

﴿أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾

يعني: ﴿أُولَٰئِكَ﴾ الموصوفون **بهذا الوصف** ﴿يُؤْتَوْنَ﴾ من الله تعالىٰ ﴿أَجْرَهُم﴾ علىٰ إيمانهم هذا ﴿مَّرَّتَيْنِ﴾، وذلك ﴿بِمَا صَبَرُوا۟﴾ أي: بصبرهم علىٰ الطاعة، حينما آمنوا بكتابهم الأول واتبعوه، ثم علىٰ إيمانهم بالقرآن واتباعهم له، وبعد أن وصفهم ربنا عز وجل بالصبر، أضاف إلىٰ هذه الصفة أيضًا **صفة أخرىٰ** وهي:

أنهم ﴿يَدْرَءُونَ﴾ يدفعون ﴿بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ أي: المعصية بالطاعة.

وصفة ثالثة وهي: أنهم ﴿مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ أي: ينفقون علىٰ خلق الله من الرزق الحلال.

وصفة رابعة وهي: أنهم يبعدون أنفسهم عن اللغو ومجالسه ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ﴾ من القول ﴿أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ وابتعدوا.

﴿وَقَالُوا۟﴾ لأصحابه: أنتم في واد، ونحن في واد آخر ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾.

ثم فارقوهم وقالوا: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ نحن ﴿لَا نَبْتَغِى﴾ مخالطة ﴿ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ بشرع الله، المبتعدين عن الإلتزام بتعاليمه.

وهكذا، اتضحت وثبتت نبوة محمد ﷺ، بما لا يدع مجالًا للشَّك، ولكن ماذا تفعل

مع الطبيعة الجاحدة، والقلوب المغلقة المعاندة؟ ولذلك يقول ربنا لحبيبه وحبيبنا ﷺ:

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾

أي: لا تحزن يا محمد لعدم إيمانهم بعد هذا كله؛ حيث ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي﴾ بنفسك ﴿مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ له الهداية إذْ عليك البلاغ فقط ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ﴾ جل جلاله ﴿يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ هدايته إلىٰ الحق.

﴿وَهُوَ﴾ عز وجل ﴿أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ أي: بالمستحقين للهداية؛ فيهديهم.

ثم يناقش أعذارهم الواهية في عدم إيمانهم، فيقول جل وعلا:

﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾

يعني: قال هؤلاء الكافرون لمحمد ﷺ؛ لتبرير عدم إيمانهم به، وعدم اتباعهم له: ﴿إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ﴾ ونخالف الناس من حولنا ﴿نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾ يعني يعادوننا ويحاربوننا.

والعجيب: أنها نفس حجة مَن لا يطبقون شرع الله في هذا الزمان..!! وكأن الناس من حولهم لا يعادونهم ولا يحاربونهم، حتىٰ مع عدم تطبيقهم لشرع الله..!! المهم، يرد الله عليهم هذا التبرير الكاذب بقوله جلت حكمته: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ وهم كفار؟ أفلا نفعل لهم ذلك وهم مؤمنون؟ بل نفعل.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنا قادرون علىٰ ذلك، وإذا علموا: لا يسلمون بذلك عنادًا، ومن هنا: فهم لا يؤمنون.

ولأن موقفهم هذا هو عين الظلم، فإن الله تعالى يقول:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾﴾

أي: سنهلكهم؛ لعنادهم وظلمهم ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا﴾ قبلهم ﴿مِن﴾ أهل ﴿قَرْيَةٍ

﴿بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ طغت فلم تشكر نعم الله عليها، وتحسُّ فيها، وتؤمن بسببها.

وهذه ﴿مَسَٰكِنُهُمْ﴾ التي يمرون عليها، والتي يكتشفها علماء الآثار كل حين ﴿لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ وليس لها وارث ﴿وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ لها.

ألا يتعظون فيؤمنون..؟ علىٰ أية حال:

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾

يعني: في أي زمان لم يهلك ربنا أحدًا إلَّا وقد أرسل رسولًا يتلو آياتنا، ويبلغ رسالتنا قبل هذا الإهلاك، كذلك ما أهلكنا أحدًا إلَّا وهو ممن يستحقون العذاب.

وهذا عذر واهٍ آخر في عدم إيمانهم، والردُّ عليه، يقول تعالت قدرته:

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾﴾

يعني: لا ينبغي أن يكون ﴿مَتَاعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا﴾ الفانية، صارفًا لكم عن الإيمان وطاعة الله، أو عن الالتزام بشرع الله؛ حيث إن ﴿مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾ من هذا ﴿وَأَبْقَىٰٓ﴾ منه. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ذلك..؟

أيضًا ﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ﴾ نحن ﴿وَعْدًا حَسَنًا﴾ إذا آمن، وأطاع الله، والتزم بشرعه ﴿فَهُوَ لَٰقِيهِ﴾ و واجده قطعًا، ﴿كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ لفترة قصيرة، وهو غير مؤمن..؟

﴿ثُمَّ هُوَ﴾ فوق ذلك ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ إلىٰ جهنم؟ إنهما أبدًا لا يستويان.

بعد الرد على أقوال الكافرين والعصاة الفارغة، ينتقل الحديث إلى بعض مشاهد يوم القيامة، إذ يقول الواحد الأحد:

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾﴾

هذا هو **المشهد الأول**، وفيه بيان لبعض ما يحدث مع الكفار يوم القيامة.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ المولى ﴿فَيَقُولُ﴾ لهم ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ﴾ في الدنيا ﴿تَزْعُمُونَ﴾ أنهم شركائي؟

وفي هذا المشهد ينطقون، ويحكي العزيز العليم جوابهم بقوله عز وجل:

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾﴾

يعني: ينطق الدعاة إلى الكفر، من شياطين الإنس والجن، وهم ﴿ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ أي: وجب عليهم العذاب، فيقولون يا: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ﴾ من الكفار ﴿أَغْوَيْنَٰهُمْ﴾ باختيارهم ﴿كَمَا غَوَيْنَا﴾ باختيارنا، ولا إلزام لنا عليهم، ولا إكراه منا لهم، على كفرهم.

يا ربنا: ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ﴾ منهم، ومن كفرهم، فهم ﴿مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ بل كانوا يعبدون أهواءهم، وشهواتهم.

﴿وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾﴾

أي: ﴿وَقِيلَ﴾ لجميع المشركين، حينئذ ﴿ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ﴾ الآن لينقذوكم من العذاب.

﴿فَدَعَوْهُمْ﴾ ونادوهم.. ماذا حدث؟

﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ﴾ لأنهم لا يجيبون، ولا يستطيعون.

﴿وَرَأَوُاْ﴾ أي: ورأى المشركون ﴿ٱلْعَذَابَ ۚ﴾ أي: ونزل بهم العذاب.

يقول تعالىٰ: ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾ في الدنيا؛ لمَا حدث لهم ذلك في الآخرة.

وكأنها دعوة إلىٰ مراجعة النفس من الكافرين، والعصاة الضالين.

ثم يكون **المشهد الثاني** من مشاهد يوم القيامة، يقول العليم الحكيم:

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾﴾

أي: ﴿وَيَوْمَ﴾ القيامة ﴿يُنَادِيهِمْ﴾ المولى ﴿فَيَقُولُ﴾ لهم: ﴿مَاذَا﴾ كان جوابكم الذي ﴿أَجَبْتُمُ﴾ به ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ حينما دعوكم إلىٰ الإيمان..؟

وفي هذا المشهد يحاولون النطق، لكن لا يستطيعون، والسبب..!! يقوله المولىٰ سبحانه وتعالىٰ:

﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾

﴿فَعَمِيَتْ﴾ فخفيت ﴿عَلَيْهِمُ الْأَنبَاءُ يَوْمَئِذٍ﴾ في كل شيء إنهم يفكرون، ويفكرون، حتىٰ ينطقوا ويجيبون، ولكنهم لا يصلون إلىٰ معرفة شيء، لا عن الرسل ولا عن بلاغهم لهم، ولا عن جوابهم هم، وهذا الحال في جميعهم.

ولهذا ﴿فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ أي: لا يسأل بعضهم بعضًا عن جواب هذا السؤال.

وهذا الموقف لمن أصر علىٰ الكفر، ومات عليه.

﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾﴾

يعني: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ﴾ أي: رجع عن كفره، ﴿وَآمَنَ﴾ بالله، واتبع شرعه، وأطاع رسوله ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ يسعد به العباد، ويصلح به البلاد، ويرضىٰ به الله: ﴿فَعَسَىٰ أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾ الناجحين في الدنيا، الفائزين في الآخرة.

وعلىٰ كل حال فمرد الأمر كله إلىٰ الله..

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾﴾

نعم، ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ كما يشاء، فهو سبحانه المتفرد بعملية الخلق

والإيجاد، ﴿و﴾ هو كذلك ﴿يَخْتَارُ﴾ ما يشاء لمن يشاء، حسب ما يناسبه في علم الله عز وجل.

﴿مَا كَانَ لَهُمُ﴾ أي: البشر جميعًا ﴿ٱلْخِيَرَةُ﴾ يعني الاختيار؛ بل عليهم التسليم المطلق لله، والتوكل الكامل عليه.

﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ معه من آلهة، لا تملك شيئًا من ذلك، ولا من غيره.

هذا.. ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾﴾

أي: ﴿وَرَبُّكَ﴾ سبحانه ﴿يَعْلَمُ﴾ وحده ﴿مَا تُكِنُّ﴾ أي: ما تخفي ﴿صُدُورُهُمْ﴾ من الإيمان، أو الكفر، أو الحقد على الإسلام وأهله ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ وسيحاسبهم على هذا وذاك.

﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾

يعني: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ﴾ ولا معبود سواه، كما لا رب ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨] إلَّا هو، كما لا يعلم ﴿مَا تُكِنُّ﴾ [القصص: ٦٩] صدور عباده جميعًا، سواه.

لذلك: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ﴾ أي: واجب على كل العباد.

﴿وَلَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ أي: له التشريع، والتحليل والتحريم وحده؛ لأنه الخالق وحده.

﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ جميعًا، فيجازي كل واحد بما يستحق من الجزاء.

ثم يدلل الله عز وجل على هذه الوحدانية، فيقول:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾﴾

أي: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد، ويا كل داعٍ إلى الله في كل زمان ومكان، لأهل الدنيا كلها ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ أي: أخبروني ﴿إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا﴾ دائمًا بظلمته

﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ تبصرون به..؟ ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ فتعقلون، فتؤمنون..؟

ثم يقول أيضًا..

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾﴾

يعني: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ هذه النعمة، فتعقلون، فتؤمنون..؟

ثم بيّن وجه إنعامه في جعل الليل والنهار، حيث يقول المولىٰ عز وجل:

﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾

أي: أن الله عز وجل ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ لهذه الحكم:

أولًا: رحمة منه بكم، وإنعامًا عليكم.

ثانيًا: ﴿لِتَسْكُنُوا۟﴾ في الليل من متاعب عمل النهار.

ثالثًا: ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟﴾ في النهار بالسعي والعمل، من فضل الله تعالىٰ، ورزقه.

رابعًا: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الله علىٰ ذلك، فتثابون.

أليس الله بعد ذلك هو الواحد الأحد، المتفرد بالخلق، الذي له ما يشاء ويختار..!!؟

بلىٰ.. وألف بلىٰ.

ثم يكون **المشهد الثالث** من مشاهد يوم القيامة، يقول الله تعالىٰ:

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾﴾

يعني: ﴿وَيَوْمَ﴾ القيامة ﴿يُنَادِيهِمْ﴾ المولى ﴿فَيَقُولُ﴾ لهم ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ﴾ في الدنيا ﴿تَزْعُمُونَ﴾ أنهم شركائي؟

وفي هذا المشهد لا ينطق الكافرون كما في المشهد الأول، ولا يحاولون كما في المشهد الثاني، بل لا ينطقون تمامًا، لذلك يقول العزيز الحكيم:

﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾

أي: ﴿و﴾ لأنهم لا ينطقون جميعًا في هذه الحالة ﴿نَزَعْنَا﴾ استخرجنا ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ﴾ واحدًا منهم، يكون ﴿شَهِيدًا﴾ عليهم، يتكلم بدلًا عنهم.

﴿فَقُلْنَا﴾ لهؤلاء المنتزعين ﴿هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ دليلكم على شركائكم الذين كنتم تعبدونهم في الدنيا ﴿فَعَلِمُوٓا۟﴾ حينئذ ﴿أَنَّ﴾ التوحيد ﴿ٱلْحَقَّ لِلَّهِ﴾ والعبادة الحقة لله، لا لغيره، لذلك فلم ينطقوا، بدورهم أيضًا.

﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ وغاب عنهم كما عميت الأنباء على جموعهم ﴿مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ كذبًا من الشركاء.

هذا، وتبدأ آيات السورة الكريمة في ذكر قصة قارون، يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾

يخبر ربنا عز وجل عن قارون بثلاثة أشياء:

الأول: أنه ﴿كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾ يعني كان من بني إسرائيل.

الثاني: أنه ﴿بَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ﴾ أي: على قومه، وظلمهم، واستخف بهم، ولم يرع فيهم حق القرابة؛ بسبب غناه، وكثرة ماله.

الثالث: أنه كان من الأغنياء جدًّا ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ﴾ أي: الأموال ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ﴾ التي تفتح بها خزائن هذه الكنوز ﴿لَتَنُوٓأُ﴾ تثقل ﴿بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾ بالجماعة الأقوياء.

﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ﴾ الصالحون من ﴿قَوْمُهُۥ﴾ وهم يعظونه: خمسة وصايا. وهي كما يلي:

الوصية الأولى: ﴿لَا تَفْرَحْ ۖ﴾ بالدنيا وزينتها، فرحًا يؤدي بك إلى البطر والطغيان؛

حيث: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ الذين أحبوا الدنيا واطمأنوا إليها، ونسوا الآخرة، ولم يستعدوا لها.

الوصية الثانية: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ من الغنى والكنوز، ثواب ﴿ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ باستعمال ما وهبك الله في وجوه التقرب إليه.

الوصية الثالثة: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ في المباحات؛ استمتع بها على الوجه الذي يوافق شرع الله، بلا تقتير ولا إسراف.

الوصية الرابعة: ﴿وَأَحْسِن﴾ إلى الخلق بحسن المعاملة، وإلى الخالق بحسن الطاعة ﴿كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾.

الوصية الخامسة: ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بالظلم، والصد عن سبيله؛ حيث: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ الذين يؤذون العباد، ويخربون البلاد.

والله إنها لوصايا غالية، فهل استمع إليها قارون، وعمل بها..؟ نعم استمع إليها ولكنه:

﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾

أي: ﴿قَالَ﴾ لهم: استريحوا من وصاياكم، فإني لا أحتاج إليها، إذْ لا فضل لأحد في هذا المال، ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ﴾ واكتسبته ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ أي: بمجهودي، وذكائي، وعلمي.

وهذا منه قول فاسد، وفهم باطل، ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ﴾ القوي القادر ﴿قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ﴾ السابقة ﴿مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً﴾ في بدنه ﴿وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ في ماله؛ وذلك لعدم شكرهم لله، وردهم الفضل في ذلك إليه.

وبالتالي، فإنا قادرون على إهلاك هذا المغرور المجرم.

﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ﴾ وعللها وسببها ﴿ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ بل يؤخذون أخذ عزيز مقتدر.

وبعد أن قال لهم قارون هذا الكلام، يقول الله تعالىٰ عنه:

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾

يعني: ﴿فَخَرَجَ﴾ ذات يوم ﴿عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى﴾ كامل ﴿زِينَتِهِۦ﴾.

ولما رآه الناس علىٰ تلك الحال، من روعة المنظر وبهاء الزينة انقسموا فريقين:

الفريق الأول: وهم الذين يريدون الحياة الدنيا، وهؤلاء قالوا: ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ﴾ من هذه الزينة، وتلك الأموال.

الفريق الثاني: وهم العلماء وأهل الدين، وهؤلاء لم يبهرهم هذا المنظر، ولم تفتنهم هذه الزينة؛ ولذلك قالوا للذين بهروا ممن يريدون الحياة الدنيا: ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ﴾ بالله ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ يرضي الله، ويصلح البلاد، ويسعد العباد.

وقولهم هذا يتوافق مع ما في الحديث الصحيح: «**يقول الله تعالىٰ: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشر، اقرؤوا إن شئتم** ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾» [السجدة: ١٧].

ثم أكمل هذا الفريق كلامه قائلًا: ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ أي: الجنة، التي هي ثواب الإيمان والعمل الصالح ﴿إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ علىٰ عمل الطاعات، والبعد عن المعاصي، ولم يفتنوا بزينة الحياة الدنيا، ورضوا فيها بما قسم الله لهم.

هذا، ولمَّا زاد بغيه وطغيانه، حل عقابه؛ يقول الجبار المنتقم:

﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾

يعني: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ﴾ أي: بقارون ﴿وَبِدَارِهِ﴾ معه ﴿ٱلْأَرْضَ﴾ وذلك عقوبة له علىٰ بغيه.

ولمَّا فعلنا ذلك، ﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ﴾ جماعة، ممن حوله من المنتفعين به،

أو من غيرهم ﴿يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: يمنعونه أو يمنعون عنه عذاب الله.

﴿وَمَا كَانَ﴾ هو ﴿مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ لنفسه؛ بما عنده من علم مزعوم، أو قوة موهومة.

وهلك قارون..، وضاعت زينته، ولم ينفعه ماله..!!

﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾

وأفاق الذين يريدون الحياة الدنيا..!! وهم ﴿ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟﴾ أن يكونوا ﴿مَكَانَهُۥ﴾ أي: مثله ﴿بِٱلْأَمْسِ﴾ من هول صدمة خسف قارون!! وعرفوا أن الدنيا لا تدوم، وأنها إن حلَت أوْحلت، وإن كسَت أوْكست، وإن بسَطت قبضَت، وإن أعطت أخذت، وأن زينتها ذاهبة، لذلك أصبحوا ﴿يَقُولُونَ﴾ ندمًا ﴿وي﴾ لإظهار هذا الندم ثم يقولون: ﴿كَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾ يوسعه ﴿لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ بقدرته ﴿وَيَقْدِرُ﴾ أي: يضيقه على مَن يشاء من عباده بقدرته.

ثم قالوا: ﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ بعفوه عن أمنياتنا الخاطئة، ونظرتنا الفاسدة للمال، ﴿لَخَسَفَ بِنَا﴾ الأرض، كما خسف بقارون.

﴿وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ مهما أوتوا من زينة الحياة الدنيا، وكثرة أموالها، وقوة البغي فيها.

وبعد أن قص الله علينا قصة قارون، وفتح عيوننا على ما فيها من دروس وعبر: يعقب عليها ببيان سنة من سننه تعالى، حيث يقول:

﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾

يعني: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ﴾ التي عرفتم أوصافها ﴿نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ واستكبارًا على أهلها ﴿وَلَا فَسَادًا﴾ فيها، وذلك لا يكون منهم إلَّا بعدم إرادة المعاصي، وتركها بالتالي، وفعل الطاعات، والتعلق الدائم بمرضاة الله.

﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ﴾ الحسنة عندنا ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾. ولذلك ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾ يوم القيامة ﴿فَلَهُۥ﴾ منا ﴿خَيْرٌ مِّنْهَا﴾.

﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ التي عملها في الدنيا، من الكفر والمعاصي.. ﴿فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ من العقاب ﴿إِلَّا﴾ مثل ﴿مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

هذا، ولمَّا فصل ربنا في أحوال الآخرة، أيضًا فصل في بعض أحوال النبي ﷺ إذ قال:

﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾﴾

أي: ﴿إِنَّ﴾ الله ﴿ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ﴾ أحكام وتعاليم ﴿ٱلْقُرْءَانَ﴾ وخصك به ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ﴾ مكة في ﴿مَعَادٍ﴾ حدده هو سبحانه، ويعلمه هو سبحانه، تدخلها فيه منتصرًا، بعد أن أخرجوك منها وحيدًا.

وهذه بشرىٰ لمحمد ﷺ، ودليل علىٰ نبوته، حيث أخبر الغيب وحققه الله له، وفق ما أخبر به، لذلك قال له ﴿قُل﴾ للناس جميعًا ﴿رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ وهو أنا، ﴿وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ وهم المشركون.

وفي نهاية السورة: يذكِّر الله محمدًا ﷺ ببعض نعمه عليه، ويطالبه بمجموعة أوامر ونواهٍ علىٰ النحو التالي:

﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾

يعني: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ﴾ أو تتوقع أو تظن ﴿أَن يُلْقَىٰٓ﴾ وينزل ﴿إِلَيْكَ﴾ من ربك ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾ أي: القرآن، ولكن ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ بك وبأمتك، وبالبشرية كلها: نزل هذا القرآن، لذلك عليك بما يلي:

أولًا: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا﴾ مساعدًا، ولا مناصرًا ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ الذين يعادونك، ويبغضون دينك، بل فارِقْهم وخالفهم.

ثانيًا: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ﴾ ويمنعك ﴿عَنْ﴾ تبليغ ﴿ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ وأحكامه والعمل بها ﴿بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ أحد.

ثالثًا: ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ﴾ توحيد ﴿رَبِّكَ﴾ وطاعته، وعبادته.

رابعًا: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ انتسابًا، أو مشاركة لهم في عمل، أو اعتقاد.

خامسًا: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ ليُعْبَد حيث لا تليق العبادة إلَّا له، إذْ ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ﴾ فانٍ ﴿إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ سبحانه، الحي القيوم، تموت الخلائق، ولا يموت.

﴿لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ والأمر، والنهي، والتشريع، والتصرف، في الدنيا والآخرة.

﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أيها الناس كلكم، يوم القيامة، فيجازيكم بأعمالكم، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر.

* * *